تجليات الثورة في الأدب الجزائري

Manifestations of the Revolution in Algerian Literature

1– د. فلكاوي رشيد *، المدرسة العليا للأساتذة – آسيا جبار– قسنطينة (الجزائر)

felkaoui.rachid@ensc.dz

تاريخ الاستلام: 2022/03/28 تاريخ القبول: 2022/05/04 تاريخ النشر: 2022/06/15

ملخص:

يتناول المقال تجليات الثورة في الأدب الجزائري الحديث ممثلا في نماذج شعرية، رافقت هذه الأخيرة محطاتها الكبرى بين أحداث 08 ماي 1945 و01 نوفمبر 1954، إلى أن نالت الجزائر استقلالها، استعرضنا في ثناياه التضحيات التي قدمها الشعراء ونضالهم بالقلم، وعالجنا إشكالية ارتباط الشعر بالجهاد في سبيل الله والوطن، وكيف خدم الأدب الثورة، مدافعا عنها، مناضلا في سبيل استرجاع الحرية، عرف بها وطنيا، عربيا وعالميا.

كلمات مفتاحية: التجلي.، الثورة.، الأدب، الشعر، الوطن، الجزائر.

Abstract:

The article deals with manifestations of the revolution in modern Algerian literature represented by poetry models. The latter accompanied its major phases; between the events of May, 8th 1945 and November, 1st 1954, until Algeria achieved its independence. We reviewed within this article, the sacrifices made by poets and their struggle by writings, and we addressed the problem of the association of poetry with jihad for the sake of God and the homeland, and how literature served the revolution, by defending it, fighting for the restoration of freedom, and introducing it nationally, and at the Arab and international levels.

Keywords: manifestation, revolution, literature, poetry, homeland, Algeria**.**

*- المؤلف المرسل

- **مقدمة**

لم يكن الأدب الجزائري بعيدا أو بمنأى عن الأحداث التي شهدتها الجزائر منذ العهود القديمة، بل سار الأدباء الجزائريون وكافحوا ضد الاستعمار الفرنسي طيلة فترة تواجده في الجزائر منذ 1830، وعانوا على غرار إخوانهم المجاهدين في الجبال، وشهدوا أشد أنواع الظلم والاضطهاد من قبل المستعمرين.

أدركت فرنسا جيدا أهمية كفاح القلم ودرجة خطورته عليها، من خلال توعية العقول وشحذ الهمم، وتعليم الناس، ومؤازرة الكفاح المسلح بالقلم، وإسماع صوت الجزائر في مختلف المنابر العربية والعالمية، وجمع العالم نصرة للقضية الجزائرية العادلة، وشهدت الساحة الأدبية مخاضا عسيرا خاصة بين 1945 و1954، حيث أدرك الأديب الجزائري أن الكفاح بالقلم لا يقل شأنا عن حمل السلاح، وقد حاربتهم بكل ما أوتيت من قوة من أجل إسكات صوت الحق وتكميم الأفواه، ولكن هيهات، فقد رضع الجزائريون الحرية منذ نعومة أظفارهم، فنبتت فيهم وأزهرت قصائد شعرية، ومدونات أدبية.

تسارعت الأحداث في الجزائر منذ انتفاضة 08 ماي 1945 إلى اندلاع الثورة التحريرية المباركة في الفاتح من شهر نوفمبر من العام 1954 إلى استقلال الجزائر عام 1962، رافقتها أقلام أدبية جزائرية وقفت في وجه الاستعمار الفرنسي الغاشم فأنتجت أدبا ثوريا، وما أيقونة الشعر الجزائري مفدي زكريا ببعيد عن كل المحافل العربية والعالمية، وعلى شاكلته الكثير منهم نذكر حصرا: محمد ديب، محمد العيد آل خليفة، أحمد رضا حوحو وغيرهم كثير.

نسعى من خلال هذا المقال إلى إبراز تجليات الثورة التي قام بها أجدادنا في الأدب الجزائري، ودور هذا الأخير في إذكاء شرارة المقاومة والوقوف في وجه الاستعمار الغاشم، والتعريف بالثورة الجزائرية وبتضحيات الشعب الجزائري المتعطش للحرية، والقضاء على المقولة الفرنسية الشائعة أن الجزائر فرنسية، كما نروم أيضا إبراز تضحيات الأدباء الجزائريين، وما عانوه من اضطهاد وتعذيب جسدي ونفسي، وتقديم نماذج من الأدب الجزائري الثوري.

سيعالج المقال إشكالية ارتباط الأدب بالثورة، وعلاقته بها، وما قدمه إضافة إلى الكفاح المسلح، ومدى أهمية غرس ثقافة الوعي وقيم محاربة الاستعمار، ودوره في تنظيم الصفوف لمواجهة الاستعمار الفرنسي، ومكانة الأديب عامة والشاعر خاصة في ساحة الوغى، والتعريف بشعراء الثورة الجزائرية، وسفرائها داخليا وخارجيا (عربيا وعالميا).

1. مجازر 08 ماي 1945 وأثرها على الأدب الجزائري

تجسدت صور المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي في الأدب الجزائري بشكل خاص، والعربي بشكل عام، تجلت عبر الدفاع المستميت للأدباء الجزائريين في مختلف المحافل الوطنية العربية و العالمية، استغلوا كثيرا من المناسبات ليسمعوا صوت الشعب الجزائري المقهور، فوقفوا جنبا إلى جنب مع المجاهدين الذين حملوا السلاح في الجبال، وأرخوا عبر شعرهم أحداثا كثيرة خاصة في الحقبة التاريخية الحديثة بين 1945 و 1954، إذ أيقن الشعب الجزائري ومعهم الأدباء وبعد الأحداث الأليمة التي عاشها خيبة أمله في وعود المستعمر الفرنسي الغاشم، وراح الجزائريون ينظمون صفوفهم، والأدباء يخلدون الأحداث الأليمة ضمن صنوف الأدب والشعر، فالأديب إنسان مواطن ينتمي إلى المجتمع الذي يعيش فيه، يسعد لسعادته ويحزن لحزنه، ولا يمكن أن ينأى بنفسه بعيدا عن الأحداث التي تجري في مجتمعه و" لأن الأديب الجزائري في الفترة الاستعمارية كان يعاني – تلك الضغوط والمظالم الاستعمارية، فإنه لا يعقل إلا أن تكون له ردود أفعال إبداعية (شعرية أو نثرية)"[1] ولهول ما وقع للشعب الجزائري من مجازر في تلك الحقبة ساد صمت رهيب عند الأدباء والمثقفين، أو ما يقال عنها الهدوء الذي يسبق العاصفة، ماعدا بعض ما جادت به قريحة المبدعين من خواطر وأناشيد تستنهض الهمم، وتبرز وحشية الاستعمار الفرنسي.

يرجع الأستاذ محمد العيد تاورتة سبب الصمت إلى الصدمة التي تلقتها الساحة الأدبية وعلى غرارها كل الشعب الجزائري جراء الأعمال العدائية للمستعمر الفرنسي، يستثنى بعض من الشعر الملحون والأناشيد الوطنية الحماسية التي قيلت في ذلك الوقت، " إن نصوص الشعر الملحون وكذلك نصوص الأناشيد الوطنية تعد شواهد تعبيرية أدبية على تلك الفترة، ولا ننسى أن الأناشيد الوطنية الجزائرية في الثلاثينيات والأربعينيات إلى منتصف الخمسينيات كانت من أهم ما يعبر به الشباب – والشعب كله – عن حماسه وعواطفه، وثورته، ومن أهم الأناشيد الجزائرية الخالدة في هذا الباب، نشيد (فاشهدوا) للشاعر مفدي زكرياء، ونشيد (جزائرنا يا بلاد الجدود) محمد الشبوكي، ونشيد شعب الجزائر مسلم)، للشيخ عبد الحميد ابن باديس"[2].

---

[1] محمد العيد تاورتة، "صدى أحداث 08 ماي 1945في الأدب الجزائري المعاصر"، **مجلة الآداب**، قسم اللغة العربية، جامعة منتوري، قسنطينة، (الجزائر)، العدد08، ص186 .

[2] المرجع نفسه، ص 188

أحدثت مجازر 08 ماي 1945 جرحا قويا وضغطا رهيبا على جميع المستويات، ساد صمت مهيب بعيد الأحداث نتيجة المجازر الوحشية والإبادة الجماعية التي ارتكبتها فرنسا، لم يكد يستفيق منها الشعب الجزائري، فراح يحصي أبناءه الذين سقطوا في ميدان الشرف، نتيجة خروجهم في مظاهرات عبر فيها عن سعادته بمناسبة فوز فرنسا على النازية، لأنها كانت قد وعدتهم بالاستقلال بعد أن جندت الكثير من المحاربين عبر جبهاتها، صدقها الشعب الجزائري، وما إن سمع بفوز فرنسا وحلفائها حتى خرجوا إلى الشوارع متظاهرين سعداء جدا بهذا الإنجاز، ولكن هيهات أن تفي فرنسا المستعمرة بوعودها، عوض مكافأتهم بالاستقلال، ردت عليهم بوابل من الرصاص، فأسقطت الآلاف منهم في ساحة الشرف، ولكن بعد أن استجمع الشعب الجزائري قواه ووعى جيدا أن ما أخذ بالقوة لابد أن يسترجع بالقوة، عبر عن ردة فعله وعلى المستويين الواقعي(التحضير للثورة) والأدبي (دعم كل هذه التحضيرات نفسيا ومعنويا)، وأيقن الشعب الجزائري أن فرنسا يستحيل أن تفي بوعودها، وقد كان وصف همجية الاستعمار وما فعله في قالمة، سطيف وخراطة هو أول ما كان في الأدب الجزائري بشكل عام في تلك الفترة، من بين الألوان الأدبية والتي صور فيها ضحايا مجازر 08 ماي 1945، نشيد الكشافة الإسلامية الجزائرية، والذي دعا صراحة إلى العمل من أجل الوطن دون الخوف من الرصاص ومن الموت، حيث يقول احد الشعراء بالمناسبة:[1]

حيو الشمـــال يا شـــباب حيو الشمال الإفريقي

قوموا للحزب الوطن يا شـباب تبكي العيون كيف لا تبكي العيون

على الليماتو في السجون يا اخواني في أول ماي، الجزائر في أول (ماي)

ضاعت شبـــان الـــوطن في أول (أفريل)، الجزائر في أول (أفريل)

ضـــحت شبـــان التحرير بالطيارات فرنسا بالطيارات في قالمة

قتـــلت نســـاء وبنـات على السطايفية يا حزني على السطايفية

مـــاتو الحـــب الحـــرية قوموا يا ناس للعمل قوموا يا ناس للوطن

[1] محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، الجزائر، 1971، ص 369، وكذلك ينظر في مقال محمد العيد تاورتة، ص 190-191

قوموا يا ناس ما تخافوش من ضرب الرصاص فضيت كلامي يا شباب فضيت كلامي

يمثل هذا النشيد صوت الضمير، وآهة من آهات الجرح العميق والصدمة القوية، تعبيرا عن الخيانة العظمى والمقيتة التي تعرض لها الشعب الجزائري، ترجمت على لسان هذا النشيد الحيني الآني الذي انتفض بشدة، ووقف في وجه الاستعمار الفرنسي الغاشم، ودعا الشعب الجزائري إلى تنظيم صفوفه، ولملمة جراحه، ومواجهة الاستعمار الفرنسي بكل ثبات وعزم، وأن ما أخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة، وأنه لا سبيل للمهادنة

جدير بالإشارة أن تجليات الثورة في الأدب الجزائري مرت بفترتين، الأولى حينية آنية كما عرضناها في النشيد النموذجي الذي عبر بكل أسى وحرقة عن تلك المجازر، ميزه الطابع الاستعجالي تجلى في أناشيد خفيفة توعوية، تتميز بأسلوبها المباشر واستعمال بعض الألفاظ من العامية، تعبيرا عن تضحيات كل الناس دون استثناء، والتخفيف من بعض قيود الشعر، أو ما يسمى بالشعر والأدب الشعبي.

برز في تلك الفترة لون من ألوان الأدب الشعبي من شعر ملحون وقصائد شعبية، وحكم وأمثال فرضتها الظروف والحالة المأساوية التي كان يمر بها الشعب الجزائري، فلم يكن الشعراء يملكون الوقت للأدب والثقافة، بالرغم من أهميته في مجابهة الاستعمار، إلا أن الجزائريين كان قد شغلهم تنظيم صفوفهم واستعدادهم لمناسبة عظيمة ستلي هذه المجازر، وهو التحضير لثورة هي من أعظم الثورات في الفترة الحديثة والمعاصرة.

وبعد فترة الصمت والهدوء راح الأدباء يؤرخون - وبعد بضع سنين- لهذه المجازر ويسجلونها وصمة عار على جبين فرنسا الاستعمارية، مذكرين الأجيال بما حدث قبل سنوات، قبيل الاستقلال، وحتى بعد الاستقلال، فهذا محمد البشير الإبراهيمي يؤرخ لأحداث الثامن ماي 1945 والمجازر التي ارتكبتها فرنسا في حق الجزائريين بقوله:[1]

ذكراك يا يـــوم ... تحز في الأحشا
إذا أقبل القـــوم ... وحش تلا وحشا
يا يـــوم لم تشرق ... شمس على مثلك.
آل الضحى مغـرق ...والملتجى مهلك.

[1] من جريدة البصائر، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، العدد119، يوم 19 ماي 1950

ذكـــــراك يا يوم ... لا تأتلي حـوما.
تعتاد في النـــــوم ... فتطرد النوما.
ريـــع الحمى فيكا ... والأهل في غفله
لم يعف عافيـــكا ... طفلا ولا طفله.
فيك اعـــترت لمـه ... رهطا من الشمس.
فقتلـــــوا أمه ... أحيتهم أمـس
ســـاقت لهم نصرا ... جـــازوه بالكسر.
كمـــن فدى الأسرى ... فبات في الأســـر.
لهفي على هـــاو ... على شفا العمـر.
قـــــد تله غـاو ... فخسو للصـــدر.
ما خبّ أو أوضع ... إلا الشقا أمـــــه.
لهـــفي على مرضع ... قد عفوت أمـه

يؤرخ محمد البشير الإبراهيمي في هذه القصيدة تلك المآسي ويقدمها في صورة حزينة، عبر عنها بكل لوعة وأسى، وما حدث في ذلك اليوم، الذي لم يكن ككل يوم، كان يوما للعقاب عوضا أن يكون يوم الجائزة، عبر عن نكران الجميل عوضا عن الاعتراف به، كان يوما مهيبا شاقا داميا على الشعب والأمة الجزائرية، مستعملا حقلين معجميين، أولهما سجل فيه دموية ووحشية الاستعمار الفرنسي من خلال استعماله للألفاظ المعجمية التالية: " وحش"، " قتلوا"،" الأسر"...، وثانيهما بين فيه تشبث الجزائريين بالنصر والعزيمة والإرادة " نصرا"، " أحيتهم"...الخ.

لقد أثرت هذه المناسبة الأليمة كثيرا في نفوس العديد من الأدباء فأرخوها وجعلوها عبرة لمن يعتبر، يقول أحد الشعراء:[1]

أثامن ماي عليك السلام...على الشهداء الضحايا الكرام
على الأبرياء الذين هووا ...و هم يحسبونك عيد سلام
أتوك بآمالهم ينشدون ...نشيد الأخوة بين الأنام

[1] الأخضر رحموني، مأساة 8 ماي 1945 في الشعر الجزائري، أقلام تأبى نسيان هذه الملحمة التاريخية، جريدة المغرب الأوسط (اخبارية وطنية شاملة)، 2021/05/08، 16:10

يلوكون ما كرر الحلفاء...سماسرة السوق سوق الكلام
يقولون نحن حماة الضعيف ...دعاة الإخاء و رسل الوئام
نثبت حق اختيار المصير ...شريعة عدل ومسرى نظام
إذا بالمكائد كالأخطبوط ...و شعب الجزائر فيها حطام

كانت لأحداث الثامن ماي 1945، وبالرغم من الخسائر الفادحة التي ألمت بالشعب الجزائري، والأرواح الهائلة التي قدمت فداء لهذا الوطن الحبيب، نتائج وخيمة على فرنسا بل صورها الكثير من الشعراء الجزائريين بركانا انفجر في وجه الاستعمار، فانقلب السحر على الساحر، وأصبحت النقمة نعمة، والضارة نافعة، يقول الشاعر:[1]

دوت كعصف الرعد في الآذان...و تفجرت في الشرق كالبرهان
منها الجزائر لا تسل عن وقعها...عما تكابد من أسى و تعاني.

لم يغفر الشعب الجزائر للمستعمر الفرنسي، ولم يدع المناسبة الأليمة تمر دون عقاب، بل راح يبحث عن وسائل وطرائق أخرى يجابهها بها، وهذا ما تجلى كثيرا في الأدب الجزائري، وهو ما يذكره الشعر في مطلع البيتين السابقين، فكانت رعدا وبركانا، وعاصفة في وجه الاستبداد والمستبدين، فسار الأدب منه الشعر جنبا إلى جنب مع النضال السياسي والعسكري، بل كان أحد أوجه الثورة الجزائرية المجيدة المباركة.

2- الأدب الجزائري وثورة التحرير 1954:

ألهمت ثورة التحرير الشعراء الجزائريين، فكتبوا عنها وخلدوها تتناقلها الأجيال وتداولتها الألسن، ساهمت في تقديمها للناشئة إلى حد اليوم وطنيا، عربيا وعالميا، " إذ تعد وثبة أول نوفمبر في نظر الشعراء الجزائريين من أعظم الوثبات المخلدة لأروع ملحمة بطولية سجلها الشعب الجزائري في القرن العشرين، حين هب كرجل واحد لإنقاذ الوطن من براثن الاستعمار وشروره"[2]. فتغنى بها الشعراء الجزائريون، وصورت القصص والروايات بطولات المجاهدين وشهداء الثورة الأبرار، صنعوا منهم أبطالا في روايات خالدة إلى يومنا الحالي، تغنى الأدباء بمختلف أصنافهم ببطولات الشعب الجزائري، وقهرهم لقوة عظمى آنذاك، كذلك دعم الشعر الجزائري حتمية قيام الثورة التحريرية الكبرى، فقد "

[1] نقلا عن: الأخضر رحموني، المرجع السابق.

[2] أوريدة عبود، ثورة نوفمبر المجيدة وبعدها الإنساني في شعر صالح خرفي، **مجلة رفوف**، المجلد السادس، العدد الثاني، ديسمبر 2018، ص ص 105 / 106

كان اندلاع الثورة المسلحة في ذلك الوقت بالذات ضرورة فرضتها الأحداث وسياسة الاستعمار العقيمة، إذ أصبح الوطنيون يؤمنون أن لا طريق لنيل الحرية إلا طريق الثورة والعنف"[1]

برز نوع من أنواع الشعر مطلع 1954 مجاراة لاندلاع الثورة التحريرية الكبرى، وسم بـ " الشعر الثوري" الذي سار بجانب الثوار يدافع بالقلم، ينطلق هذا النوع من الشعر من " سنة 1954، وهي السنة التي ارتبطت بالحدث التاريخي الفاصل والبارز في حياة الجزائر، الذي غير حياة الشعب الجزائري وتفكيره، ونظرته للحياة، والفكر والأدب والسياسة، فاتقدت عواطف الشعراء، واهتزت أقلامهم، وصورت انتصارات الثورة وبشرت بالاستقلال، وتغنت بالحرية والوطن"[2]

خلد الشعر الجزائري الثورة الجزائرية والأحداث التاريخية، من بينها تلك المرتبطة بملاحقة الفرنسيين لأبطال الثورة الجزائرية، والحكم عليهم بالإعدام، فقدم مفدي زكرياء البطل أحمد زبانة وهو يتقدم إلى المقصلة مبتسما فرحا بما ينتظره في جنات الخلد، ووصف تلك اللحظات التي أرعبت المستعمر الفرنسي، يتجلى ذلك في جلاديه، إذ يقول:[3]

قام يختال كالمسيح وئيدا يتهادى نشوان يتلو النشيدا
باسم الثغر كالملائك او كالط فل يستقبل الصباح الجديدا

يصور الشاعر البطل أحمد زبانة " الذبيح الصاعد" في صورة المبتهج الشجاع، الذي أربك المخطط الفرنسي الذي أراد تخويف الشعب الجزائري، وتصوير مآل من تسول له نفسه مواجهتها، ولكن ما حدث فعلا هو العكس، إذ أبى أحمدز بانة أن يظهر في صورة الخائف، وهو يعلم أنه سينال الشهادة في سبيل الله في الآخرة، كما أن موقفه البطولي هذا سيفجر ثورة في نفوس كل الجزائريين، وسيذكي فيهم شرارة الالتحاق بصفوف جيش التحرير الوطني، وهو ما حدث فعلا.

---

1 يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكرياء (دراسة فنية تحليلية)، دار البعث للطباعة والنشر، ط1، الجزائر، 1987، ص 27.

[2] سليماني أسماء، الثورة في الأدب الجزائري الحديث (من 1925 إلى 1976) الشعر أنموذجا – دراسة موضوعاتية فنية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، تخصص الأدب الجزائري والنقد العربي المعاصر، قسم اللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، 2019/2018، الجزائر، ص 22

[3] مفدي زكرياء، اللهب المقدس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 09

تدل المتتاليات اللغوية المستعملة في البيتين الشعريين – نموذجا- تمثيلا لا حصرا، على القيمة الوطنية والدينية والنفسية التي أظهرها مفدي زكريا نصرة للثورة الجزائرية فاستعمل الكلمات التالية: يختال، المسيح، يتهادى، نشوان، باسم، الملاك، الصباح، الجديد، تتقطر الكلمات وتشع صبرا وانتصارا وانتظارا للصباح الجديد، وكلها تدور في فلك معجم: التفاؤل والانتصار والمقاومة والسعادة والابتهاج، " فمفدي زكرياء من خلال نظمه للقصيدة لا يصف لنا الحدث كمأتم، وإنما يقدم صورة عن لحظات الفرح والسرور التي أحاطت بالمناضل أحمد زبانة وهو يتقدم لينهي مصيره، أي هو ذبيح شهيد صاعد إلى حيث العلو والرفعة إلى سماء ربه، فإن روحه صعدت إلى المولى عز وجل لذلك ما تناوله الشاعر هو رسالة موجهة إلى الشعب محددة الأهداف، ونظرته للاستشهاد وهو شيء إيجابي للثورة وعامل من عوامل الرضا على النفس، وراحة البال"[1].

لا يخفى عن جميع المؤرخين والأدباء والنقاد، أن مفدي زكرياء وآخرين يقدمون الثورة الجزائرية في الأدب الجزائري الحديث في صورة أبطالها الأمجاد فيصورون بطولاتهم تارة، والأحداث التي يصنعونها تارة أخرى، وهي حرب نفسية إعلامية، في ذلك الوقت، كذلك هي أدبية لأن الأدب الجزائري في تلك الحقبة لابد أن يتعزز بالقيم الوطنية، والدينية والثوابت التي يناضل من أجلها الجزائريون، كذلك لابد أن يشحذ الهمم ويرفع المعنويات ويكون حافزا لحمل السلاح، وهو السند المعنوي المهم جدا في تحقيق الانتصارات في شتى الميادين والمجالات، فهذه الانتصارات في أرضى الوغى لابد أن يترجمه الأدب أيضا في قصائد شعرية، وقد وصف العديد من الشعراء والأدباء انتهاء كذبة فرنسا القوية، خاصة بعد اندلاع الثورة التحريرية، يقول أبو القاسم سعد الله في هذا المجال:[2]

أقولها لفرنسا جلية كالصباح
إني كمين جديد لجيشك السفاح
إني بعثت إليك على زئير الرياح
على نذير الفناء على دوي السلاح
لقد عرفت طريقي ولن يرد جماحي

يقدم الشاعر نفسه ممثلا عن الشعب الجزائري الأبي الحر الذي قابل عنجهية المستعمر الفرنسي وخيلائه، في صورة الواثق من نفسه، بل تصل به حد السخرية من فكرة أنه لا مناص للعيش

[1] حياة كاسي، الجمالية الأسلوبية لقصيدة مفدي زكرياء الذبيح الصاعد، أنموذجا، مجلة اللغة الوظيفية، ع07، ص ص 328/327

[2] أبو القاسم سعد الله، الديوان، عالم المعرفة، ط3، 2010، ص 233

تحت جناح فرنسا، يتوعد تارة ويهدد تارة أخرى، يسخر تارة ويثأر تارة أخرى، وهي مما لاشك فيه حرب نفسية، فيها ازدراء للمستعمر الغاشم، وتمجيدا للإنسان الجزائري الأبي، كما يقدم الأدب الجزائري بطولات الثورة عبر ربوع الوطن، ويصور الظلم الممارس في السجون والمعتقلات، كما صور أيضا يوميات المجاهد، والبطولات والمعارك وساحات الشرف التي سقط فيها الشهداء، متبوعا بتوثيق كل جرائم الاستعمار الفرنسي عبر الأدب ليكون شاهدا على مر العصور. فهذا عبد الكريم العقون يقوم بوصف بطولات الشعب الجزائري، ويمجده بقوله:[1]

نحن نسل الألى لهم خضع العالم واستعذبوا ورود الحمام
نحن نسل الألى لهم سطر التاريخ فخر يبقى لهم بدوام
نحن أحفاد قادة قهروا الفرس ودانت لهم بنوا الأورام
إننا خير أمة أخرجت للناس فاقتادت الورى بزمام

ألهمت الثورة الجزائرية الأدباء بمختلف أصنافهم، وأوقدت فيهم شعلة الإبداع، وساهمت البطولات والتضحيات التي قدمها الشعب الجزائري في إذكاء الغريزة الإبداعية عند الكثير منهم، فراحوا يتغنون بها فخرا واعتزازا وتمجيدا تارة، ويكشفون جرائم الاستعمار الفرنسي تارة أخرى، وقد ساهم الأدب الجزائري في التعريف بالثورة الجزائر في المحافل الدولية، وأوضح للعالم أجمع أن ما يقوم بها الجزائريون هو تصفية للاستعمار الفرنسي الذي جثم على صدر الجزائر طيلة قرن ونصف قرن من الزمن، كما عرى ما كانت تتبجح به فرنسا وتسعى لنشره من أجل تبييض صورتها، وأن ما تقوم به ليس استعمارا بل نشرا للحضارة والتمدن، فسار الشعراء قوافل وجحافل يدافعون عن قيم الأمة الجزائرية ويحاربون الاستعمار بالقلم، وهو ليس أشد خطورة من رفع السلاح بوجهه، ودليل ذلك أن فرنسا قد حاولت تجهيل الشعب الجزائري، فحاربت الأقلام الساطعة النيرة، فمنهم من نفتهم، ومنهم من فرضت عليهم إقامة جبرية، بل وصل بها الحد أن عذبت وقتلت منهم ورمت بعضهم في حمم من الزيت المغلي انتقاما منهم.

أعطى الشعب الجزائري ليلة أول نوفمبر مكانة خاصة، وقدسية مهيبة، فمنهم من شبهها بليلة القدر، في بركاتها ومكانتها، إذ كانت الفيصل بين الحق والباطل، وبين الظلم والعدل، فانتفض الشعب الجزائري، واستجاب لهم الله فقذف في نفوس الفرنسيين الرعب والهيبة، وكم من فئة قليلة غلبت

[1] مجلة البصائر العدد 24 1948/02/23 نقلا عن سليماني أسماء، المرجع السابق، ص 35

فئة كثيرة بإذن الله، تمسكا بمبادئ الدين، ووحدة الوطن، خلد مفدي زكرياء ثورة التحرير تخليدا أدبيا لا مثيل له، إذ يقول:

دعا التاريخ ليلك فاستجابا نوفمبر هل وفيت لنا النصابا ؟
وهل سمع المجيب نداء شعب فكانت ليلة القدر جوابا
تبارك نيلك الميمون نجما وجل جلاله هتك الحجابا
زكت وثباته عن ألف شهر قضاها فيك يلتحف السرابا
تجلى ضاحك العثماني تحكي كواكبه قنابله لهابا
يناشئه هناك أشد وطئا و أقوم منطقا واحدا نابا
مضت كالشهب و انحدرت شظايا تلهب في دخنتها التهابا
وهزت" جبهة التحرير" شعبا فصب الشعب ينصب انصبابا[1]

ضمن الشاعر هذه القصيدة الكثير من المفردات المستوحاة من المعجم الثوري "قنابله"، "لهابا"، "شظايا"، "تلهب"، "هزت"، فهذه الألفاظ وغيرها الكثير في قصائد مفدي زكرياء تتقطر ثورة وهيجانا وحماسا واندفاعا من أجل الدفاع عن الجزائر وعن أرضها الطاهرة، تشحن الفرد الجزائري، وتزيده قوة وإيمانا وشجاعة، بل تحرك مشاعره وتزرع فيه الرغبة في الالتحاق بجيش التحرير الوطني.

لقد ساهم الأدب الجزائري كثيرا في تشجيع الأهالي من أجل الالتحاق بصفوف جيش التحرير، ولبوا نداء الوطن المترجم عبر قصائد ملحمية ثورية، أججت روح الفداء، وأشعلت فتيل الثورة في نفوسهم، لهذا فالقلم لم يكن بردا وسلاما على الفرنسيين بل أشد وقعا من الرصاص والبارود، لأنه هو الذي كان سببا في التحاق الكثير بصفوف الثوار من أجل نيل الاستقلال والاستقرار، وقد كان " المرحوم مفدي زكرياء في طليعة الشعراء الواصفين لهذه الليلة، فهو من الواثقين بما أقدم عليه الشعب في هذا اليوم المشهود ومن المؤمنين بأن التاريخ يعيد نفسه طال الزمن أم قصر، فإذا كان الاستعمار الفرنسي قد بذل كل ما في وسعه من أجل قتل روح المقاومة في الإنسان الجزائري وسلب سيادته وطمس شخصيته بشتى الطرق والوسائل، فإن تاريخ الحركة الوطنية خير شاهد على أن الشعب الجزائري لم يستسلم، وأنه كلما أجبر على وضع السلاح إلا وأعاد الكرة من جديد، ومن هنا

[1] عبد الله ركيبي، دراسات في الشعر العربي الجزائر الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، ص ص 138 ،137.

تغدو وثبة أول نوفمبر في نظر مفدي زكرياء من أعظم الوثبات المخلدة لأروع ملحمة بطولية سجلها هذا الشعب، حين هب كرجل واحد لإنقاذ الوطن من براثن الاستعمار وشروره"[1]

بلغت نشوة الثورة مداها، والحماس أشده عند مفدي زكريا والعديد من الأدباء الجزائريين أثناء الثورة التحريرية، وما فتئوا يتيقنون يوما بعد يوم، سنة بعد سنة انطلاقا من العام 1954 أن النصر آت لا محالة، ولا مجال لا للحوار ولا للمهادنة، يقول مفدي زكريا في هذا الصدد:[2]

نطق الرصاص، فما يباح الكلام! و جرى القصاص ،فما يتاح ملام!

و قضى الزمان ،فلا مرد لحكمه و جرى القضاء ،و تمت الأحكام..

و سعت فرنسا للقيامة، و انطوى يوم النشور، و جفت الأقلام

إن المتأمل في الأدب الجزائري عامة والشعر خاصة يستنتج ميزتين مهمتين جدا، أو أننا أمام " متعة الفن الشعري بخياله وتصويره وموسيقاه، ومتعة الموضوع بزخمه وهوله وروعته، التي تركت آثارها في نفوس الجزائريين، ونفوس غيرهم من العرب والمسلمين والأجانب أيضا، ونجد أنفسنا مجبرين على استرجاع ماضينا لنقرنه بحاضرنا ونتأمل سنة الله في خلقه وكونه، فكما كان أبو تمام والمتنبي يقفان على معارك الملوك والمسلمين في زمانهم وينقلونها تصويرا ومعاني وعواطف خلدوها في التاريخ، فكذلك فعل مفدي زكرياء وغيره مع الثورة الجزائرية، وإذا كانت معارك الماضي أياما ولياليا، فإن الثورة سنونا طويلة مرة ولم ينته كابوسها إلا بعد تضحيات جسام، فلا عجب أن يخصص شاعر مثل مفدي زكرياء أغلب شعره لتخليد أمجاد الثورة، والفخر برجالها، حتى ظننا أن ليس لمفدي زكرياء اهتمام في الدنيا سوى الجزائر"[3].

مرت فترة الصمت في الأدب الجزائري بعيد الثورة الجزائرية، ليس ضعفا أو فتورا بل إن الشعراء أنفسهم انشغلوا بالنضال من جهة، والرقابة التي فرضها عليهم المستعمر الفرنسي من جهة

---

[1] مصطفى بيطام، الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي (1954/ 1962) دراسة موضوعية فنية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998، ص 24

[2] مفدي زكرياء، اللهب المقدس، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ص 41

[3] رمضان حينوني، الثورة الجزائرية في الشعر العربي الحديث، مجلة إشكالات، قسم الدراسات الشعرية، العدد الأول، ديسمبر 2012، المركز الجامعي تمنغست، الجزائر، ص 114

أخرى، والملاحقات والمضايقات التي كان يتعرض لها الأدباء منهم الشعراء، فنفي الكثير منهم، ومنهم الآخرون من أدخلوا السجن جراء اقتناع المستعمر الفرنسي بضرورة تكميم الأفواه، ولكن وبالرغم من صمتهم، لم يمتنعوا عن قول الشعر بل عبروا عن هذا الصمت بالشعر، مثلما يذهب إليه أحدهم بقوله:[1]

أنا لا أغرد للنضا ل ولا أغني للرجولة
ملت مسامعنا وعا ف الشعر ترديد البطولة
لمن الهتاف ؟ وأمتي لما تزل بين الحمم
الصمت أبلغ في الوغى والنصر للزحف الأصم

وبعد مرور الأيام والأشهر والسنوات، لوحظ الصمود والتحدي على الثورة الجزائرية، فلم يتمكن المستعمر الفرنسي من إخمادها كما كان يفعل طيلة قرن ونصف قرن اتجاه الثورات الشعبية التي كانت تتأجج هنا وهناك، فكان يحشد لها قواه ويسكتها ويئدها في مهدها قبل الانتشار والتوسع، ولكن هذه المرة وبعد أحداث 08 ماي 1945 حضر الشعب الجزائري نفسه جيدا، وأدرك أنه هناك أمر جلل ينتظره ومناسبة عظيمة، لابد أن يتوحد عبر كل مدنه وقراه، وعبر كل الأطياف، فثورة أول نوفمبر لم تكن مثل الثورات الشعبية السابقة.

أيقن الشعب الجزائري أنه لا مناص من المواجهة، لأن فرنسا مقتنعة أنها لا يمكن أن تغادر الجزائر، لهذا كانت الثورة التحريرية جامعة شاملة لكل الشعب الجزائر، وحتى المغاربي والعربي، تعدت حدودها لتحشد مواقف مساندة لها مناهضة للاستعمار الفرنسي، فأنتجت ما يسمى أصدقاء الثورة الجزائرية من الأدباء والمفكرين والمثقفين، فأطلق عليها "ثورة الصمود والتحدي" ف "المتصفح لتاريخ الجزائر قديمه وحديثه يلحظ أن روح الصمود والتحدي لدى الشعب الجزائري عبر العصور والأزمنة، ظلت هي الميزة الأساسية وعلامة من العلامات البطولية التي عرف بها، وأنه في عهد الثورة التحريرية وبالتوازي مع التاريخ، يأتي الشعر الجزائري بخاصة وشعر المغرب العربي بعامة حافلا بشتى الصور والدلائل الثابتة على أن الشعب الجزائري في كفاحه ونضاله من أجل الحرية والاستقلال، ظل صامدا وعازما على مواصلة الثورة بشتى الوسائل من أجل الحرية والاستقلال، وأنه ما كان ليتردد في دفع عجلة الثورة إلى الأمام أو يشك في شرعيتها وحتمية انطلاقها"[2]

[1] نقلا عن: رمضان حينوني، المرجع السابق، ص 116
[2] مصطفى بيطام، المرجع السابق، ص 66

بدأت تباشير النصر تلو ح في الأفق وأيقن الأدباء الجزائريون وبعد سنوات قليلة أن الاستقلال آت لا محال، لذا آمنوا بضرورة مؤازرة ودعم إخوانهم في الجبال ومن هم ضمن الصفوف الأولى في معركة الجزائر المجيدة فراحوا ينضمون الواحد تلو الآخر بأقلامهم، ويدعمون فكرة الاستقلال التام دون تفاوض، وقد اندمج كل الأدباء ومنهم الشعراء في هذا المسعى، فهذا مفدي زكرياء يقول في إحدى قصائده متحديا الاستعمار الفرنسي، مؤكدا أن طريق الجزائريين واضح وضوح الشمس فيقول:[1]

لاذ بالانتخاب (مولي) سفاها في بلاد تسيل فيها الدماء

أي معنى لمجلس، دون حكم وطني، على يديه القضاء؟

نحن نبغي استقلالنا.. حرفوه ما استطعتم إن صد عنه الحياء

لقبوه: تكافلا.. وارتباطا ما عساها، تهمنا الأسماء؟

إن جهلتم طريقه.. فعليها "لافتات".. حروفها حمراء

اعتراف.. فدولة.. فسلام فكلام.. فموعد.. فجلاء

آزر الأدباء الجزائريون رفقاء دربهم في الجبال طيلة سنوات التحدي والإسرار والعزيمة، كلهم قناعة أن الاستقلال لن يبق له إلا القليل، فمن 1954 إلى غاية 1962 لم يستسلموا ولم يفشلوا رغم ما تعرضوا له من تنكيل وتعذيب لم يقل عن ما عاناه الثوار، إلى أن نالت الجزائر استقلالها، وصدحت حناجر الجزائريين بالاستقلال، فتنفسوا الحرية، كذلك فعل الشعراء مثلهم، وتخلصت الجزائر من أخطر آفات العصر الحديث بنيلها الاستقلال.

خاتمة:

عالجنا في هذا المقال وعبر ثناياه ومفاصله العامة والخاصة قضية ارتباط الأدب شعره ونثره بالثورة الجزائرية، وواقع الأدباء منهم الشعراء في الحقبة الاستعمارية الحديثة، أبرزنا دورهم في المقاومة والجهاد، وكيفية تلقيهم للأحداث المتسارعة والمفاجئة خاصة منذ مجازر الثامن ماي من العام ألف وتسعمائة وخمس و أربعين، إذ أن الأحداث لم تكن متوقعة ولم يخطر على بال الجزائريين أن

[1] مفدي زكرياء، اللهب المقدس، المرجع السابق، ص ص 54/53

تتصرف فرنسا تصرفا همجيا وبتلك الطريقة والوحشية، فكانت تلك الأحداث منعطفا حاسما في الثورة وكذلك في مجال الإبداع الأدبي.

لقد سجلنا محطات الأدب المتسارعة،بعيد المجازر مباشرة، عرضنا موقف الشعر والشعراء من المجازر، وكيف ساهموا من خلال النضال السياسي والعسكري، إضافة إلى النضال الفكري في شق طريق الثورة والتحضير للثورة التحريرية الكبرى، كذلك قدمنا تفسيرا للصمت الذي ساد الساحة الأدبية وعلاقته بنتائج مجازر الثامن ماي 1945.

أما المحطة الثانية من المقال فقد بينا فيها مساهمة الأدب في إشعال فتيل الثورة والدفاع عنها، ومساهمته أيضا في إذكاء حماس الثوار، والدفاع عن القضية الجزائرية أدبيا في المحافل الوطنية، المغاربية، العربية وحتى العالمية، وكيف كان سببا في تضامن الأدباء من مشارق الأرض ومغاربها، فراحوا يتغنون بالثورة والثوار.

يمكن أن نبرز تجليات الثورة في الأدب الجزائري في ما يأتي من عناصر موجزة:

- لا يمكن الفصل بين الثورة والأدب بل كان هذا الأخير الفتيل الذي ساهم في إشعال وتأجيج نار الحرب في وجه فرنسا.
- لبى جميع شعراء الجزائر النداء، وساهموا في الجهاد عن طريق تثبيت قيم الثورة في نفوس كل الشعب الجزائري .
- تجلت الثورة الجزائرية في الأدب منه الشعر، بل سارا جنبا إلى جنب عبر كل المحطات، وبعد الاستقلال خلدها في دواوين شعرية فسجلوا بطولات الثورة، وصوروا صمود وتحدي الثوار، ونددوا بالاستعمار الفرنسي، كما تغنوا بها بعد الاستقلال إلى يومنا هذا.

قائمة المصادر والمراجع:

01- أبو القاسم سعد الله، الديوان، عالم المعرفة، ط3، 2010.

02- أوريدة عبود، ثورة نوفمبر المجيدة وبعدها الإنساني في شعر صالح خرفي، مجلة رفوف، المجلد السادس، العدد الثاني، ديسمبر 2018

03- الأخضر رحموني، مأساة 8 ماي 1945 في الشعر الجزائري، أقلام تأبى نسيان هذه الملحمة التاريخية، جريدة المغرب الأوسط (إخبارية وطنية شاملة)، 2021/05/08، 16:10

04- جريدة البصائر، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، العدد119، يوم 19 ماي 1950

05- حياة كاسي، الجمالية الأسلوبية لقصيدة مفدي زكرياء الذبيح الصاعد، أنموذجا، مجلة اللغة الوظيفية، ع07.

06- محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، الجزائر، 1971.
07- محمد العيد تاورتة، صدى أحداث 08 ماي 1945في الأدب الجزائري المعاصر، مجلة الآداب، العدد08، كلية الآداب، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر.
08- مفدي زكرياء، اللهب المقدس، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر.
09- مصطفى بيطام، الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي (1954/ 1962) دراسة موضوعية فنية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998.
10- سليماني أسماء، الثورة في الأدب الجزائري الحديث (من 1925 إلى 1976) الشعر أنموذجا – دراسة موضوعاتية فنية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي، تخصص الأدب الجزائري والنقد العربي المعاصر، قسم اللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، 2019/2018، الجزائر.
11- عبد الله ركيبي، دراسات في الشعر العربي الجزائر الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009.
12- رمضان حينوني، الثورة الجزائرية في الشعر العربي الحديث، مجلة إشكالات، قسم الدراسات الشعرية، العدد الأول، ديسمبر 2012، المركز الجامعي تمنغست، الجزائر.